

الباب الثالث

وصف الطبيعة في القرآن الكريم

الفصل الأول: وصف الأرض وما عليها

الفصل الثاني: السماء في القرآن

الفصل الثالث: الأنواء في القرآن

الطبيعة في القرآن الكريم لقيت عناية خاصة؛ لأنها مظهر من مظاهر الدلالة على الخالق الأعظم، وكان الوصف الفني وسيلة ناجحة في تشخيص هذه الطبيعة، وعرضها نابضة بالحركة والحياة، فالوصف الفني يطرد في أكثر آيات القرآن الكريم لأن قليلاً من صور القرآن هو الذي يعرض صامتاً ساكناً؛ لغرض فني يقتضي الصمت والسكون، أما أغلب الصور ففيه حركة مضمرة أو ظاهرة، يرتفع بها نبض الحياة، وتعلو بها حرارتها، وهذه الحركة ليست مقصورة على مشاهد القصص والحوادث، ولا على مشاهد القيامة ولا على صور النعيم، أو صور البرهنة والجدل، بل إنها لتلاحظ في موضوعات أخرى، في غير ما يتوقع المرء... وإن الحركة التي تشع من الآيات القرآنية المصوّرة هي مما تنبض به الحياة الظاهرة للعيان وهذا ما سماه النقاد - ومنهم سيد قطب - بـ «التخييل الحسي» الذي يظهر في خلع الحياة على المواد الجوامد، والظواهر الطبيعية المألوفة.

تظهر الصورة الفنية جلية واضحة واسعة حين تصف الآيات القرآنية الكريمة، القبة السماوية، وتعرضها عرضاً حياً، فهامي ذي السماء تسبح بحمد ربها إجلالاً، وتنفطر إشفاقاً، وفيها نجوم متلألئة مضيئة، كأنها مصابيح تزيناها، وتتوسطها الشمس، يتلوها القمر، فيزيدانها بهاءً ويكسبانها ضياءً.

ولتكتمل صورة الطبيعة في القرآن يصف البيان القرآني ما بين الأرض والسماء من غيوم كأنها جبال محمولة على متن الرياح تبسطها في السماء تارة، وتنقلها إلى بلاد أخرى تارة ثانية؛ كل ذلك بأسلوب حيّ نشيط.

ثم تبرز آيات القرآن الوصفية في تجسيم الليل والنهار، وهما يتعاقبان ويلفان الحياة وينقلان الوجود من ظلمة إلى نور، ومن نور إلى ظلام، ويخلعان

عليه بهجة في الصبح وهو يتنفس، كما يخلعان عليه قدسية وسكوناً إذا ما الليل
عمس، حتى إذا انتهى الغروب غاب الشفق وزال عن الأفق الشحوب.

ولا ينسى الوصف القرآني الأرض التي تتمم لوحة الوجود، فيجدها
ويشخص مظاهرها؛ فالأرض تحيا وتموت وتبرز على سطحها حيوات
النباتات، فالجنان المعروشة ذات القنوان الدانية في فصل، والاختضار الذي
يلبس الأرض ثوباً أخضر في فصل آخر بعض مظاهر الحياة.

وصف القرآن الكريم النباتات وقد شقت الأرض بقوة الحياة تمزق جدران
أغلفة بذورها، فتخرج خضرة بهجة، وتتفلق انفلاق الإصباح، وتتطاول
الأشجار، فتنبسُ وينفدُ طلوعها، وتمتد ظلالها وارفة فيها فاكهة والنخل ذات
الأكمام، والحب ذو العصف والريحان.

والعناصر الجامدة على سطح الأرض لقيت في وصف القرآن وتصوير بيانه
الفني الحي عناية كذلك؛ فالجبال راسية في الأرض كالأوتاد، منها الأبيض
والأحمر والأسود، هذه الألوان التي تجعل الوصف القرآني أكثر التصاقاً بالواقع
بل يحكيه.

وليست الجبال والنبات عناصر الأرض وحدها، فالبحار عنصر هام لم
تغفله آيات القرآن بل عرضت له صوراً عديدة، وأوصافاً متعددة، تشكل في
مجموعها صورة ذلك البحر الهاديء الوقور حيناً والصخب الذي يتلع ما علا
سطحه حين يثور حيناً آخر.

كما أن الوصف القرآني مذكّر آفاق وصف الطبيعة في صورة عريضة،
وما اكتفى بأن وصف الأعالي والأسافل وما بينهما، بل ألح على إدخال عناصر
حياة حية حقيقية كالطير ومن صافات في جو السماء يسبحن، وكذلك الإنسان
الذي يضرب أكباد الأرض ويجوب الآفاق.

ووصف القرآن الكريم الفلك التي تشكل مظهراً من مظاهر نشاط الإنسان؛
فالجواري في البحر كالأعلام: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: ٢٤]
وهي تمخرُ غُباب اليم تدفع ركابها أحلام عراض: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَخَّرَ

الْبَحْرِ إِنَّا كُنَّا مِنْهُ لَحَمًا طَرِيًّا وَنَسْتَخْرِجُهُ مِنْهُ جَلِيَّةً تَلْبَسُوهَا وَتَرَى الْفَلَكَ
مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ [النحل: ١٤].

على هذا النحو يتجلى وصف القرآن الكريم للطبيعة سواء في قبتها السماوية
وما فيها، أو عالمها الأرضي وما يعلوه من أحياء وما بين هذا وذلك.

الفصل الأول

١- الأرض وما علاها

وصف القرآن الكريم الأرض وصفاً حياً يرتقي إلى حياة إنسانية تشمل المواد والظواهر وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية، وخلجات إنسانية، فإذا الأرض تشارك الأدميين الذين عليها، تأخذ منهم وتعطيهم، وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عينهم عليه، فيأمنون بهذا الوجود مرة^(١)، ويرهبونه مرة ثانية.

ويعتمد الوصف القرآني على أساليب البيان من تشبيه موح، واستعارة مشخصة، وكناية معبرة، مستفيدة من قدرة هذه الأساليب الوصفية على الإيحاء والتعبير حتى إن الإمام الجرجاني قال في حديثه عن أساليب البيان: «لأن جُلَّ محاسن الكلام - إن لم نقل كلها - متفرعة عنها، وراجعة إليها، وكأنها أقطار تدور عليها المعاني في تصرفاتها وأقطار تحيط بها من جهاتها^(٢)»، فالاستعارة «تعلق العبارة على غير ما وُضِعَتْ له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة^(٣)».

وكذلك التشبيه الذي عرفه علماء البلاغة بأنه «العقد على أن أحد الشئيين يسند مسند الآخر في حسن أو عقل» هذه العناصر الفنية استخدمها القرآن استخداماً هادفاً، فهو ليس كتاب فن بل الفن وسيلة إلى عرض حقائقه مصورة حية، فوصف الأرض في القرآن يبدأ بعرض سعتها، فقد مُدَّت مَدّاً واسعاً ثم

(١) التصور الفني، سيد قطب ص ٦٤.

(٢) أسرار البلاغة للجرجاني ص ٧٩.

(٣) النكت في إعجاز القرآن، للرماني.

ألقيت فيها رواسي، وزيتها نباتات خضراء موزونة بهيجة، تسر العين وتخلب اللب. قال تعالى في سورة الحجر: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونًا ﴾ [الحجر: ١٩].

ثم يتابع بيان القرآن بوصفه الفني في مدّ آفاق هذه الصورة وأبعادها وجزئياتها بعد أن وضع إطارها العام الواسع، فالأرض مهّدت كناية عن صلاحيتها للإنسان، وفيها سبل للمعاش وعلامات للاهتداء. قال تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ١٠].

وفي سورة أخرى يشير القرآن في مشهد سريع إلى تمهيد الأرض حيث إنها فرشت بما يلزم فرشاً محموداً ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَهْدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٨].

ويتكرر المعنى في سورة البقرة، حيث تصبح الأرض في بيان السماء فراشاً وثيراً، قال تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرَشًا ﴾ [البقرة: ٢٢].

وتزداد الصورة غنى حيث تبرز الأنهار الرقاقة المياه، وهي تخترق الأرضين تسكب فيها الحياة حيثما استقرت ومرت، كما أن الجبال الراسية تظهر في وصف الأرض ليكون الوصف واقعياً، حتى البحور المسجورة كل أولئك يجعل الوصف القرآني للأرض غنياً، فتملأها العقول وهي تلاحظ ذلك في واقع الحياة. قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِدَلٍّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل: ٦١].

وفي سورة المرسلات تظهر الأرض وقد ضمّت عناصر عدة، وجمعت على سطحها المتناقضات، من أحياء مستوين، أو أحوات مندثرين^(١)، وفي هذه الأرض جبال شامخات، وماء ينزل من السماء فراتاً، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجْعَلِ الْأَرْضَ كِنَانًا ﴿٢٥﴾ أَنْبِيَاءَ وَأَمْوَانَ ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَيْخَانَتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٧].

(١) أساس البلاغة، للزمخشري ص ٥٤٦.

على هذا النحو يصف الفن القرآني الأرض الذلول المطواع للإنسان ويكسبها التشخيص الحي، والتخييل الحسي المتحرك حيوية، فالأرض ذليلة خاشعة ذات مناكب هادئة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَاسْتَوْفُوا مَتَاعَهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ويرافق الوصف الأرض في دورتها السنوية، فيشخص تلك الحركة الهادئة المستترة التي تعيشها الأرض بعد نزول الأمطار، فقد كانت هادئة هامة خاشعة، حتى إذا ما نزل عليها الماء تغيرت حالتها «فتهتز وتحيا بهذه الأوصاف الحية وتستحيل الأرض الجامدة كائناً حياً بلمسة واحدة، في لفظة واحدة»^(١).

إنها كلمة «اهتزت وربت» وليس سرّ جمال هذه الصورة في صورة بيانية أظهرت استعارة مكنية، بل في تشخيص حي جعلها تنبض بالحياة، يتخيلها الإنسان، وتبتهج بها النفس ابتهاج أزواج الأرض كلها. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِمْ أَنَّا تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْفِقَ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [نصفت: ٣٩].

وفي سورة ثانية نلاحظ مشهداً آخر للأرض يقوم على أساس من الاستعارة التي تبرز الصورة في الذهن. قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وتتسع الصورة التي يصف فيها بيان القرآن الأرض حين يربط بين حركتها واهتزازها وبين ما يتسبب عنها فتظهر الجنات خضرة نضرة متعددة.

ويرى سيد قطب أن القرآن حين وصف الأرض قبل نزول المطر وقبل تفتحها بالنبات، مرة بأنها «هامة» ومرة بأنها «خاشعة» ليس ذلك مجرد تنوع في التعبير بل في التصوير، فالهمود جاء في جوّ بعث وإحياء وإخراج مما يتسق معه تصوير الأرض بأنها «هامة» ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، أما «الخشوع» جاء في جوّ عبادة وخشوع وسجود يتسق معه تصوير الأرض بأنها

(١) التصوير الفني، سيد قطب ص ٦٤.

خاشعة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت، وفي كل من الموضعين حركة للأرض بعد خشوعها^(١)، كل ذلك في تناسق دقيق يؤكد أن الوصف الفني في القرآن إنما لإغناء الصورة وإبراز الغاية بها لا غرضٌ فني بحت يتصيد في كل مجال.

ومن مثل هذا الوصف ما ورد في سورة يس من أن الأرض ميتة لا حياة فيها، ثم هطلت عليها الأمطار فأحيت الأرض، وكانت بعد ذلك خضرة نضرة، فيها فواكه وأثمار، وتتلوى على أديمها المياه من العيون المتفجرة بعد نزول الأمطار. فهذا هي ذي الأرض حية عامرة بالحياة.

قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ أَهْمُ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْنَهَا وَأَمْحَرْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس: ٣٣-٣٤].

على هذا النحو نحا القرآن في الوصف، كما أنه يتخذ الإطار العام للصورة ثم يشير إلى جزئيات الصورة فيظهرها، ليستطيع القارئ أن يتملى الصورة ويحضرها، ويدرك عناصرها بصورة كلية، فالأرض بساط، أو مبسوط^(٢) يتقلب عليها المرء كما يتقلب الرجل على بساطه، وتلمس ريشة الفن القرآني الأرض لمسة فإذا هي متعة اتساع ما يتخيل الإنسان. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَالًا﴾ [نوح: ١٩-٢٠].

(١) التصوير الفني، لسيد قطب ص ٩٩ وما بعدها.

(٢) أساس البلاغة للزمخشري ص ٧-٣٥.

٢- النبات

إن وصف القرآن للأرض لم يكن وصفاً لمادة جامدة، يخرج من جوفها نبات حي، بل تعدى الوصف الأرض إلى ما علاها من نباتات متعددة، وأشجار مختلفة في الطعوم والأثمار، ويبدأ الوصف في سورة الأنعام حيث تصف هذه السورة النبات وصفاً عاماً يحدد حكايته منذ سير السحاب المحمل بالماء، الذي يكون رسول الحياة إلى الأرض، فلا تلبث أن تُخْرِجَ النباتات ذات الحبوب المتركمة أو النخل ذا الأغذاق دانية المجتني^(١) لانحنائها بثقل حملها أو لقصر ساقها، كما أخرج هذا الماء الزيتون والرمان الذي يشبه بعضه بعضاً، ويصل الوصف القرآني إلى الذرورة حين يستحضر الصورة حية شاخصة ناطقة حيث يتحول الضمير من المتكلم في أخرجنا إلى المخاطب ﴿ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَتَوَبَّهٗ ﴾ [الأنعام: ٩٩]، كل ذلك ليكون الوصف القرآني وسيلة تعين السامع على تخيل الصورة وتمثل المعنى. قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مُخْرِجًا مِنْهُ جَبًا مُرَابِعًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْحِهَا قِنَاقٌ دَانِيَةٌ وَجَعَلْنَا مِنَ الْأَعْنَابِ وَالزَّيْتُونِ وَالرَّيْحَانَ مُشْمِئًا وَقَدِيرًا مُشْمِئًا أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَتَوَبَّهٗ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وتعرض سورة عبس حكاية النبات عرضاً متسلسلاً منذ هطول الأمطار إلى آخر مراحل النبات والمآل الذي يصير إليه وبين هذه وتلك مراحل عديدة. قال تعالى: ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٥٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٥٦ فَأَلْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٥٧ وَصَبَّآ وَقَصَبًا ۝٥٨ وَزَيَّنَّآ وَمَخَلَّآ ۝٥٩ وَجَعَلْنَا مِنْ غَلَبِآ ۝٦٠ وَفَلَاحِآ ۝٦١ وَأَبَآ ۝٦٢ مَنَّمَا لَكُم مِّنَ الْأَشْيَآءِ ۝٦٣ ﴾ [عبس: ٢٥-٣٢].

وفي سورة الزمر يكون وصف النبات أشمل فقد أغناه بيان القرآن بالعنصر اللوني الذي يصبغ الصورة الفنية بصباغ الواقع الذي يعيشه الإنسان، يبدأ المشهد بلفت الإنسان إلى رؤية الماء وهو ينزل من السماء بقدر، ثم يغور في

(١) تفسير النسفي ٦٤/٢ وفي كلمة «دانية» اكتفاء أي وغير دانية لطولها كقوله تعالى: ﴿سراويل تفيكم الحر﴾.

أحشاء الأرض ليخرج متدفقاً غزيراً فيكون نهراً، أو يخرج هادئاً فيشكل نبعاً، وفي كلتا الحالتين فيه حياة الزرع المتعدد الألوان من خضرة وحمرة وصفرة وبياض^(١)، ثم ينمو ويجف وينقلب إلى اللون الأصفر بعد نضارة وبهاء وهو يسير في طريقه إلى الفناء.

هذا مشهد متكامل تبدأ فيه لوحة الوصف القرآني من لدن نزول المطر ثم خروج الزرع إلى الأثمار، كل ذلك بلمسات فنية فيها اللون والإيحاء. وحيث يسخر القرآن الكلمة العربية القادرة على التصوير والتي تدل بمعناها بدقة:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾^(٢)

[الزمر: ٢١].

إنه مشهد من مشاهد الأرض، متعدد الخطوات وهو يعرض في ببطء وتفصيل، وترك كل خطوة للعين مدة كافية للتأمل، وللنفس مدة كافية للتأثر، هذا هو الماء ينزل من السماء، فيسلك ينابيع للري ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه، ثم يهيج هذا الزرع وينضج فتراه مصفراً، ثم يبس فيصير حطاماً، وكلمة ثم في كل مرة تعطي هذه «المهلة» للعين والنفس، لتلمي المشهد المعروض قبل طيه، وعرض مشهد تال^(٣).

وفي سورة الرعد يتسع الوصف القرآني حيث ترد جزئيات تغني الصورة فتظهر بقاع الأرض مختلفة مع كونها متجاورة متلاصقة، طيبة إلى سبخة، وكريمة إلى زهيدة، وصلبة إلى رخوة^(٤)، وهناك فيها جنات مختلفات المحتوى من أعناب وزروع ونخيل ذي رأس واحد أو رأسين، فالماء واحد، وطعم كل مختلف.

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ مُّتَنَوِّرَةٌ وَغَيْرٌ مِّثْلِ ذَلِكَ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنَقِيعٍ لِّبَعْضِهَا هَلْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد: ٤].

(١) تفسير النسفي ٣١٨/٤.

(٢) السماء: السحاب.

(٣) التصور الفني لسيد قطب ص ٦٠.

(٤) تفسير النسفي ٤٠١/٤.

وتتكرر الصورة عينها في سورة الأنعام، فالجنات المعروشة والنخل والزرع المختلف أكله، والزيتون والرمان، كل ذلك مسخر لتعميق الغرض الديني: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ويحظى النخيل دون غيره بوصف خاص لما له من أهمية في حياة العربي إبان البعثة: وصف القرآن الكريم بالارتفاع والبسوق والتمر العذق الوفير النضيد. وهو بهذا الوصف يلفت الإنسان إلى التأمل الهادف المجرد، ويشير كوامن تفكره ليتدبر هذه المظاهر الدالة على الخالق: ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعْنَ نَضِيدٌ ﴾ [ق: ١٠].

وفي سورة الرحمن يشير القرآن الكريم إشارة سريعة هادفة إلى الفاكهة والنخل ذات الأكمام، والحب ذي العصف والريحان، وهي زمر من أنواع نبات الأرض وصفها القرآن الكريم بأبرز صفاتها.

على هذا النسق يرد وصف الطبيعة في القرآن الكريم مستخدماً البيان لينقل المعنى على أجنحته الرشيقة، وفي سورة الأعلى يشير القرآن إشارة صريحة إلى احتواء المراعي كل شيء: ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿١﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾ [الأعلى: ٥٤].

ولا يفوت بيان القرآن أن يصف تلك الظلال التي تطرحها الأجرام التي لها ظلال متفينة عن أيمانها وشمائلها متقادة لله تعالى^(١) ﴿ أَوْ لَتُرَبَّوْا إِنَّمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَيَنْفَعِيئُوا ظِلَّلَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨].

لفتت سورة أخرى نظر الإنسان إلى جمال تلك الجنان، ذات الحدائق المبتهجة بما فيها من أشجار وارفة الظلال، تقطر الحياة من أوراقها، يكلم جمالها وتناسقها عن عظمة منبتها: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّكُونِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنْ

(١) تفسير النفي ٤٣/٣.

أَسْمَاءُ مَاءٍ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُنَّ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا أُولَئِكَ مَعَ
 اللَّهُ بِلَهُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴿٦٠﴾ [النمل: ٦٠].

٣- البحر

القرآن ليس أدباً وإن كان في ذروته، وليس الهدف منه بلاغة وإن كان ذلك من أبسط بلاغته، بل هو كتاب لا يسمو إلى أسلوبه أديب، ولم تجاره أمم ولا شعوب، هو كما وُصف: آيات منزلة من حول العرش، فالأرض بها سماء هي منها كواكب^(١)، لقد تناول موضوعات شتى وفي كل أجاد: وصف البحر كما وصف غيره من مظاهر الطبيعة، وصفاً تُحسُّ منه حركة الموج يصطخب، وتعلو ثبجه سفن ضخمة تجري مطمئنة يحسبها الرائي جبلاً وسط البحر ثابتة، ولكنها تسير متهادية في طريقها، تدفع الرياح شراعها، فإذا ما أراد إيقافها أسكن الريح فظلت السفن رواكد جُثمًا

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٦﴾﴾ إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿﴾ [الشورى: ٣٢-٣٣].

وفي سورة الرحمن ترد صورة الجواري مرة أخرى مشبهة بالجبال، وهل تكون الجبال إلا ضخمة شامخة؟ ترى راسية على سطح الأرض، وإن صورة الفلك على صفحة الماء يظنها الرائي جبلاً علماً: ﴿وَالْجَوَارِ الْمُنشَآتِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: ٢٤].

كما أن سورة النحل تعرض مشهداً من واقع الحياة الإنسانية تعيشه: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلْسُومًا وَنَسَفَ الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ قَضَائِهِ وَرَمَلًا كَمُ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وهذا المشهد الذي ترسمه الآية يصور البحر مخلوقاً ضخماً مسخراً

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٥.

تمكّن البشر من السير فيه، وذلّوه لركوبهم والارتقاء عليه^٤ فيه مصدر من مصادر رزقهم وحليهم، فهم بين سابع وغواص، وتكتمل الصورة حين يصف القرآن تلك السفن الجارية تمخر الماء وتشقه مع صوت ينبعث منه^(١)، وتكون الصورة الفنية القرآنية موحية فالبحر ذليل مطواع، والإنسان على ظهره ينتفع، والسفن على ظهره تمزق ماءه، وتوشك أصوات الماء أن تنفذ إلى الأسماع^(٢).

وتتكرر صورة البحر مرة ثانية في سورة فاطر وتلجأ إلى طريقة بيانية أخرى حيث يوصف البحر بصفتين متباينتين، وينقسم البحر على وجه الأرض إلى بحرين: أحدهما عذب فرات سائغ شرابه، وثانيهما ملح أجاج وفيهما على حد سواء لحم طري يؤكل، وحلية تلبس، وعلى ظهرهما السفن تَمُخِرُ عُبَابَ الماء كما تمخر الريح القوية السحاب، وهي تقل على ظهرها إنساناً يضرب في الأرض يبتغي الرزق والفضل.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِيُنَبِّغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وفي سورة الفرقان يشير أسلوب القرآن إلى البحر واختلافه أيضاً فهو من البحور الميثوثة في الأرض، ومنها العذب المتساع والمالح المر، ولكنهما لا يطغيان على بعضهما وكان بينهما حواجز مانعة^(٣)

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

وتأتي صورة البحر في سورة الرحمن أخصر صورة، فالبحران - أي

(١) يقال مخر السابح: إذا شقّ الماء بصدده.

(٢) تفسير القرطبي ١٠/٨٥ وما بعدها إلى ص ٨٩.

(٣) تفسير القرطبي ١٣/٥٨.

بحرين - يلتقيان ولكن التقاءهما ليس بضائرهما: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ يَتَّبِعُهُمَا بَرِّحٌ لَّا يَبِينُ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠].

وقد تكون للبحر حالة خاصة يخرج فيها عن طبيعته معجزةً لنبي كما حدث لموسى عليه السلام، حيثُ وصف لنا القرآن البحر رَهْوَاً، وغرق فيه أصحاب فرعون: ﴿وَأَتْرَكُوا الْبَحْرَ رَهْوَاً إِنَّهُمْ لَمُعْرِفُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

وفي الشعراء ينفلق البحر ويفترق، حيث يصبح كل فرق منه كالجبل المنطاد^(١) ولا يخفى أن انفلاق البحر وتشبيهه بالطود العظيم تجسيد للحقيقة بأسلوب فني معبر: ﴿فَأَوْحَيْتَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وعلى العموم جاء وصف البحر واقعيّاً من نحو، متوخياً البساطة والبعد عن الشطط الفني والتكلف في حشد الصور من نحو ثان؛ لأن وصفه هادف ليظهر سيطرة الله على الفلك فيه وهيمنته على من فيها، وعلى الظواهر التي تحيط بها، وليبين الوصف - كذلك - مظاهر عظمة الله وفضله العميم.

٤- النهار

وصفت آيات القرآن الكريم الليل والنهار مجتمعين معاً مرّة في آية واحدة ووصفت كلّاً منهما على انفراد مرّة ثانية، وفي الحالتين كلتيهما اتُّخِذَ الوصف الفني وسيلة لإظهار الحقيقة الكونية من نحو، وإثارة الخيال الإنساني من نحو آخر.

تدرج الوصف القرآني للنهار تدرجاً سببياً منذ مراحل الصباح الأولى حتى انتهاء النهار، وغياب الشمس، متوخياً الدقة في عرض الصورة الموحية بالحقيقة الثابتة، ففي سورة التكويد يتكئ الوصف على الاستعارة التي توحى

(١) تفسير النسفي ٤٠٥/٥.

بالمعنى المستكن وراءها عن طريق ما تتركه في الخيال من إثارة. ﴿وَالصَّبْحُ إِذَا
تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨].

وتنفس هنا مستعار، وحقيقته بدء انتشاره، وتنفس أبلغ منه، وقد رأى أبو
الحسن الرماني: أن التنفس أبلغ من الانتشار لما فيه من الترويح عن النفس^(١).
وأكد أجزم بأن الصورة الفنية في تنفس الصبح تضمن إحياء آخر يكمن في تلك
الحياة والنشاط والدأب الذي يبدأ مع بداية النهار، فالنفس مظهر الحياة الأول،
ودليل استمرارها، ففي الليل هدوء وسكون، وفي الصبح انبعاث وانطلاق في
الحياة، وهذا ما أوحى لسيد قطب أن يقول في حديثه عن آية: ﴿وَالصَّبْحُ إِذَا
تَنَفَّسَ﴾: «يخيل إليك هذه الحياة الوديعه الهادئة التي تنفرج عنها ثنايا الصبح
وهو يتنفس فتتفس معه الحياة، ويدب النشاط في الأحياء على وجه الأرض
والسما»^(٢).

في سورة المدثر وصف فني لحركتين متناقضتين متتاليتين تتالياً سبباً
وزمناً: فالليل يدبر، والصبح يسفر، وفي الإدبار إظلام، وفي الإسفار تنوير
وإضاءة^(٣)، ولا يخفى أن هاتين الحركتين اكتبتا حيوية الوصف من استخدام
الاستعارة المكنية في أدبر وأسفر ﴿وَاللَّيْلُ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٦﴾ وَالصَّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٧﴾
[المدثر: ٣٣-٣٤].

وفي سورة الليل أشار بيان القرآن الكريم إلى النهار إشارة سريعة، فيوصف
بالانجلاء والظهور، وذلك كزوال ظلمة الليل، وظهور الضياء، وفي ذلك
الظرف من الزمان، انظر إلى النهار فيبدو جماله وجلاله: ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَافَى ﴿٢﴾
[الليل: ٢]

كذلك في سورة النبأ يرد النهار، ويشير سياق وروده إلى الآثار التي تكون

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله - محمدزغلول ص ٨٣،
وإذا كان الشعراء في قصائدهم يرون في الليل ثقلاً، وفي النهار انجلاء هم وزوال
غم، فإن صورة القرآن لليل هادقة نحو معنى الحياة التي تبدأ مع بدء الصبح.

(٢) التصوير الفني لسيد قطب ص ٦٤.

(٣) تفسير السفي: ٢٩١/٥.

فيه، فهو معاش للورى، حيث يتقلب الناس في حوائجهم ومكاسبهم: ﴿وَجَعَلْنَا
النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١١].

على هذا النحو تظهر صورة النهار في القرآن الكريم محددة الإطار،
واضحة الأجزاء، على الرغم من أن الآيات التي كونت مادة وصفها قليلة
متباعدة، لكنها غنية معبرة، ولا يغيين عن البال أن القرآن الكريم ليس معرضاً
للصور الفنية التي تغذي الخيال وحده، بل ينهج أسلوباً وصفيّاً خاصاً يضمن
الفكرة الرائعة في صور محببة.

٥- الليل

بات من المعروف لمن يتأمل أسلوب القرآن الكريم الوصفي أن القرآن ليس
معرضاً للصور الفنية التي تغذي الخيال وحده، بل إن القرآن ينهج أسلوباً
وصفيّاً يضمن الفكرة الرائعة في صورة محببة.

فالليل مظهر من مظاهر الوجود الكبرى يشطر حياة الإنسان، وفيه نصف
أحداثها، وله أهميته في الحياة الإنسانية وغيرها، لذا وصف القرآن الكريم في
بعض سوره الليل وصفاً شمل مراحل عمره المتجدد، ففي سورة الانشقاق أشار
القرآن إلى أهمية الليل في أسلوب قلمي: ﴿فَلَا أَسْئِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١١﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا
وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٦-١٧].

في سورة الليل يرد ذكر الليل المغشي حيث يوارى كل شيء بظلامه^(١) الذي
انداح على صفحة النهار المتألثة، وراح يغشاها شيئاً فشيئاً، حتى بدا هذا
الوجود مخفياً، فهدأت حركة الأحياء، وجلت السكينة الأشياء، وأضحى
الإنسان مجبراً على أن يخلد للراحة، لا يقوى على شيء في ظلام الليل حيث
الأخطار والأضرار «فقد غطى الليل الأرض والخلائق وهو يغشى كل شيء
بظلمته»^(٢).

(١) تفسير النسفي ٣٧١/٥، الغشية: الغطاء، والغشاء هو الذي يغلف القلب.

(٢) تفسير القرطبي ٨٠/٥.

﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا يَفْتُنُ﴾ [الليل: ١].

كما أن القرآن الكريم أشار في سورة الضحى إلى الليل فوصفه وصفاً واقعياً يلفت نظر الإنسان إلى سجو الليل وهدوئه، وإن كان المراد سكون الناس والأصوات فيه: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ٢]

ولعل هذه الظلال الندية التي تخلعها آية ﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا سَجَى﴾ تناسب إطار الحنان اللطيف، والرحمة الوديدة، والرضا الشامل، والشجي الخفيف، وكونت إطاراً من الضحى الرائق ومن الليل الساجي يناسب خطاب الرسول عليه الصلاة والسلام بعد تأخر الوحي.

وكانت كلمة سجا^(١) أنسب ما يكون فالليل إذا سجا ليس هو بالليل على إطلاقه بوحشته وظلامه، لكنه الليل الساجي الذي يرق ويصفو، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجي الشفيف^(٢).

ويرد في سورة الفجر وصف ليل وقد سرى يغطي الوجود بظلامه الهادئ، فهو سار دائم، وإنك لتحس لسريانه في هذا الكون العريض، وتأنس بهذا الساري على هينة واتئاد^(٣).

﴿وَأَلَيْلٌ إِذَا يَسْرُ﴾ [الفجر: ٢].

في حين أوردت سورة النبا وصفاً آخر لليل فهو كاللباس للإنسان، يستره عن العيون^(٤) بظلامه الذي يصل إلى كل مكان. فهذا الوصف الذي يسلكه القرآن الكريم بوساطة المجاز يجسد الحقائق الكونية، ويحرك خيال الإنسان

- (١) سجا الليل: مكن. ويقال للمعين إذا مكن طرفها: ساجية. وقال الشاعر:
يا جذا القمر والليل ساجٍ وطَرْفٌ مثلُ مَلَأِ التَسَاخِ
قرطبي ٩١/٢٠.
- (٢) انظر ما أورده سيد قطب في «التصوير الفني» ص ١٠٥.
- (٣) التصوير الفني ص ٦٤.
- (٤) تفسير النسفي ٣١٣/٥.

ليقف على جزئيات هذا الوجود الذي يعيش فيه . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا أَيْلَ لَيْلًا ﴾ [النبا: ١٠] .

أما في سورة يس فيوصف الليل وصفاً أوفى، إذ أشار القرآن إلى أن الأصل ما بين السماء والأرض الظلام ثم كان النور حاصلًا طارئاً، فإذا انسلخ النهار عاد الوجود مظلماً . . .

على هذا النحو جاءت الصورة مركبة، قال تعالى : ﴿ وَءَايَةً لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخْ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾ [يس: ٣٧] .

وكانت الصورة البيانية في سلخ النهار من الليل معبرة موحية بالمعنى الذي يرمي إليه القرآن . والذي يكمن في نزع الضوء من الليل نزع القميص الأبيض عن الإنسان ذي البشرة السوداء .

٦- الليل والنهار

سبق أن عرضنا الليل والنهار في وصف القرآن لهما منفصلين ولكن ثمة وصف آخر لهما، حيث يرد الحديث عنهما مجتمعين في آية واحدة، ويبدو أن هذا العرض يهدف إلى تعميق وصفهما .

واعتمد القرآن الكريم طريقة الوصف التخيلي، وذلك بجعل القارئ على تخيل ما وصف به كلٌّ من الليل والنهار .

أول ما نلاحظه في وصف القرآن لليل والنهار هو سباقهما الطويل الذي لا ينتهي عند غاية، فهما أبداً يتعاقبان متلاحقين إلى يوم الدين، فالليل يسرع في طلب النهار فلا يستطيع له دركاً، ويدور الخيال مع دورة الليل هذه الدائبة التي لا نهاية لها بعد، ولا ابتداء لها قبل^(١) . قال تعالى : ﴿ يُفْشِي أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُ بَدَأَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

(١) انظر تحليل هذه الصورة في «التصوير الفني» لسيد قطب ص ٦٤ .

ولا يخفى أن وراء هذه الطريقة البيانية التي يستخدمها أسلوب القرآن غاية يسعى إليها وهي قوة اللفت إلى حقائق الكون^(١) ومظاهر السيطرة عليه من قبل الله سبحانه، والقرآن الكريم عينه يوحى بهذا الهدف حيث يقول في سورة الفرقان: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢].

وثمة ظاهرة يلحظها المرء في وصف القرآن لليل والنهار، وهي إيراد أوصاف تناسب كلياً منهما تبعاً في آية واحدة؛ لتكون صورتها واضحة أشد الوضوح لأنه بهذا التقابل تتميز الأشياء. في سورة التكويد يُتبع الليل بالعسيسة ويتبع الصبح بالتنفس والحركة، في الأول إحياء بالظلمة والسكون، وفي الثاني إشعار بالحركة والانطلاق. قال تعالى: ﴿ وَاللَّيْلَ إِذَا عَسَسَ ۖ وَالصُّبْحَ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكويد: ١٧-١٨].

وثمة ظاهرة ثالثة في وصف الليل والنهار وهي إيراد أوصاف لما يجري فيهما، فالليل ليس مجرد ظلام يلف الأرض ويتردد النور بل هو سكون وهدوء، والنهار ليس ضياء بل حركة وانطلاق، وبين أن هذه الظاهرة الطبيعية هادفة تؤكد السيطرة على الكون وتسخير الإنسان.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْجِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٦٧].

مثل هذا يرد في سورة النمل مع اختلاف في الضمير الذي ينقل من الغيبة إلى الخطاب لاستحضار الصورة في الذهن: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْجِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٦].

وفي السورة عينها - سورة النمل - يظهر القرآن الكريم أن هذه الظاهرة ظاهرة الليل والنهار إنما هي لخدمة الإنسان: ﴿ وَخَعَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [النمل: ١٢].

(١) في «التفسير البياني» للدكتورة بنت الشاطيء ص ٢٥ إشارة لمثل هذا.

وفي سورة الأنعام يجتد القرآن الليل تجيداً حسيّاً، ويشخصه ظاهراً للعيان، فهذا الليل الذي لا نلمسه مادة في الواقع هو في بيان القرآن مادة تغلفها الإرادة الإلهية، ونبعث عنها الضياء والنور ونحمر الكون؛ ولتكون الصورة حيّة خالدة جاءت صيغتها اسم فاعل يدل على التجدد والحدوث، فالله يَقْلُقُ صباح كل يوم^(١)، ومن قبل كان الليل سكوناً يهدأ فيه الناس بعد طول عناء، ولما كان الليل يسير على نظام مطّرد تبدأ الظلمة تدريجياً ثم تُوارى كل شيء ويهدأ الكون، واستخدم بيان القرآن فعل «جعل» الذي يدلّ على ثبوت الحقائق، وكان المستقبل والحاضر واقعاً ماضٍ.

أما الصباح فهو في كل يوم خلق جديد، لا يكرر صباحاً آخر بالضبط، لذلك استخدم بيان القرآن الكريم «خالق».

﴿ قَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

[الأنعام: ٩٦].

(١) تفسير القرطبي ٧/٤٥ - ٤٦.